

صرخة اللغة العربية..

الزهراء الرميلي

بدأت كالمرأة « العجوز».. تسير بخطى متناقلة.. محطمة النفس.. تتن أنينا مؤلماً.. تصرخ بكلمات.. عبارات ملؤها الحزن والأسى.. دموعها جارفة قوية .. جلبابها مزقه الأهمال.. وأتلف لونه توالي الأيام..
يا الهي.. يا جبار السماوات والأرض.. باخرتي.. باخرتي.. حطمتها أمواج عاتية.. شرعها.. شرعها مزقته أياد خشنة.. غريبة.. ربابنتها.. حمايتها.. في سبات عميق.. باخرتي يا ربي.. أسطولي.. انقسم أشلاء أشلاء.. تطفو جزيفاته على السطح.. هرعت منه القصائد الطوال.. في وضوح النهار قافزة نحو رائية روادها.. من صحراء الجزيرة.. من بلاد الرافدين.. من أرض الكنانة.. قاذعة.. ذامة الأبناء والأحفاد.. هرولت الي الخطب الرائدة ، متسللة ، متوارية ، شاكية استبدادهم ، عتوهم.. جورهم لما أقصوها وصرقوا عنها النظر.. أتاني شجر الربيع قاذفا عنه أثوابه خلف الكتبان ، أتاني يعانقني.. يعزيني باكيا ، قائلاً :

لا تجزعي لصمت العرب..

فطبع دجى الليالي الصمت..

لا تغتمي لخرس بني يعرب..

فالوظاوط ينعم وسط الغيب..

ما العمل؟ ما العمل يا ربي؟ ما العمل وقد أعماني رذاذ المحيط الهائج.. أفضل ركبتي البرد القارس.. نخر عظامي.. نخر عظامي اهمال أبناء لي.. انجرافهم عني.. لا مبالاتهم بي.. صدقت.. صدقت يا من نال من كبريائك ما مزق أحشائي.. صدقت يا « طرفة بن العبد » لما جهرت نائراً..

الحنيف ، ومسقط رأس رسولنا الكريم « محمد » صلى الله عليه وسلم ، وهذا أيضاً صديقي من مراكش..
« نعم يا امرأة أنا من مراكش ، المغرب الأقصى ، قبلة طالبي العلم ، والمعرفة عبر جسر من حديد.. عبر بوابة جامع القرويين العظيم.. البلد الذي يزخر بشجر الأركان والزيتون ، والذي يجمع بين قبائل ولهجات متعددة.. »
تقاطعه المرأة صارخة بعدما تجمع كل قواها ، تقف كالأسد الهصور ، غاضبة هاتجة : « سوريا ، السعودية ، مصر ، المغرب.. اليكم عني.. تبا لكم.. اليكم عني.. فأنا تكلى.. تكلى.. تكلى.. »
تسير هائمة وتسير خلفها

ظلت منحنية غير آبهة به.. متابعه خطأها نحو المجهول وهي تقول : « بل أنا أسألك ، من أنت.. ومن هؤلاء.. سمعتمكم تتكلمون وكأنكم من بلاد بعيدة.. خلف المحيط ؟
« يرد عليها أحدهم : « لا.. لا يا امرأة ، أنا من بلاد الشام.. بالذات من دمشق المشهورة بالجامع الأموي الكبير.. وهذا صديقي ، من القاهرة.. »
« نعم أنا من القاهرة.. مصر.. بلاد الفراغة وحضارتهم العريقة التي أدهشت العالم بأسره ، وهذا صديقي أيضاً.. من مكة.. »
« نعم يا امرأة أنا من مكة ، الجزيرة العربية ، مكة مبعث ديننا

ساخطاً.. مغتاضاً :
« وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند »
يا الهي رحماك.. رحماك.. غريبة صرت.. غريبة صرت..
وعن بعد قريب ، يسير أربعة رجال ذوي وجوه وضاعة يانعة ، لباس أنيق.. ينتبهون لوضع المرأة المكلمة.. يتوقف أحدهم.. يجري نحوها ، ينظر إليها من خلف قائلاً : « من أنت يا.. من أنت يا امرأة ؟ تبدين غريبة عن هذه الأرض ، عن هذا الوطن ؟ من أين قدمت.. وكأنك عدت من حرب طاحنة ؟ من تكوينين.. قولي.. محياك خدشته أياد غريبة.. من أنت.. ؟

كرسيه ويركع أمامها متابعا كلامه والرجال واقفون مبهرين) سيدتي.. فعلا لقد أتلّفك هؤلاء الضائعون.. المنساقون.. لكن.. سيدتي.. أنت وعاء الفكر.. ، أنت أساس الحضارة الإسلامية.. أنت وسيلة التواصل السهل ، أنت اللغة السامية التي شرفها الله بنزول كلامه المقدس ، أنت من قال عنها تعالى في سورة يوسف : « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ، وقال أيضا في سورة الزمر: « قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون » ، أنت من قال عنها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم : « أحب اللغة العربية ثلاث ، لأنتي عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » ، أنت من قال عنها أعظم الشعراء حافظ ابراهيم : «أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صفاتي»

ارتدى الرجال الأربعة تحت أقدام السيدة، باكين.. نادمين.. متحسرين.. وطلب الغفران كل واحد منهم : « اغفري لنا يا سيدتنا فقد أخطأنا في حقك.. »

« لقد استهوانا العجم بمغرياته.. انجرضنا مع ادعاءاته الباطلة.. عظمناه.. وحقرنا وأهملنا ثراشنا.. ماضيئا.. هويتنا.. لغتنا.. »

« اغفري لنا يا أمنا.. فأنت مشرفة معظمة.. ما عسانا نقول لك يا أيتها السيدة العظيمة.. أنت أصلنا ودمنا ، أنت من تكلم بك سيدنا جبرائيل.. أنت من قوم بك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سلوكنا.. وأنار طريقنا.. وأخرجنا من الظلمات

اكتئاب.. استياء.. دموع .. ضعف.. شحب.. غين.. »

تقاطعته السيدة صارخة : «__صح لك ما تقول يا قاضي.. فعلا أصابني الضعف والشحب والغبن وكل شيء وسوء جاز علي بسبب هؤلاء الرجال.. » «__نحن؟؟؟»

تقاطعهم : «__اصمتوا، أنتم من رميتموني بالعمى ، أنتم من ألقيتم بكنوزي لرياح الغرب ، أنتم من وأدتم بناتي.. أنتم من أبليتم محاسني.. أنتم من وكلموني لرياح العجم ، لرياح الاستغلال.. أنتم من أطمستم معجزاتي.. أنتم نعاتي.. نعاتي.. نعاتي.. رميتم بي جانبا.. ورضعتم من العجم السموم القاتلات.. » (ترمي بالثوب الرث الذي كانت تضع على رأسها على الأرض.. وتهوى ساقطة على الأرض..)

يقفز القاضي من كرسيه العظيم ويقاطعها باكيا : «__لا، لا سيدتي ، أدركت من أنت الآن.. أدركت.. أدركت.. (يأخذ بيدها، يزيل عنها الثياب الرثة ، يعوضها بأجمل منها، ويضع على رأسها اكليلًا من ذهب، وهو يردد).. أدركت من أنت يا سيدتي.. يا ويلي.. كيف بنا انشغلنا عنك.. كيف بنا تركناك والتهينا بما لا يجدي.. جريمة ، جريمة ارتكبتها في حقك سيدتي.. ويح نفسي.. ويح أهلي وقومي.. بالله عليك سيدتي لا تفتني ولا تحزني.. كفاك اهانة لقيمتك.. كفاك تحقيرا لهويتك.. أنت المقام العالي يا سيدتي.. سامية ، سامية أنت ياسيدتي.. بالله عليك سيدتي تفضلي.. (يجلسها على

الجماعة :__ « توقفي يا امرأة ، هل ضاع أبناؤك في حرب؟؟ » تلتفت اليهم غاضبة__«حمدا لله، حمدا لله أنكم لازلتم فاهمين معنى ثكلى..» ويتقدم أحدهم نحوها قائلا : «__نعم يا امرأة ، ولماذا لا نفهمها وحروفها منا.. من جذورنا.. من أجدادنا.. » وتقاطعته صارخة : «__أنا ثكلى ، فقدت أبنائي في حرب بالاردة.. وصرت هائمة ضالة.. أبحث عن قاضي الحق.. أشكو بني وحزني لقاضي الحق بعدما شكوته لربي تعالى.. » يتقدم

آخر نحوها قائلا : «__تعالى يا سيدتي ندلك على قاض عرف بالاستقامة والعدل.. تعالى بالله عليك.. تمهلي ولا تيأسى.. التفتي الينا ، سنأخذك حالا الى القاضي التي أنت في حاجة اليه.. » القاضي رجل متزن هادئ ، اقتربت سنه من الخمسين ، يبدو عليه الوقار ، لباسه مزركش بحروف ذهبية زاهية (حروف هجائية) ، الى جانبه قواميس اللغة العربية .. «__هيا يا امرأة ، هذا هو الرجل الذي تبحثين عنه ، أخذناك الى هذا الرجل بالذات ، لأننا سمعناك تتكلمين بلغة القرآن.. وهذا القاضي أيضا موع بلغة القرآن.. هيا ارفعي دعواك اليه. يرفع القاضي مطرقته الخشبية ويشير الى الرجال بالعودة الى الخلف.. ثم يلتفت الى المرأة وهو جالس باسترخاء :__« ما بك يا أيتها المرأة.. يبدو.. يبدو أنني أعرفك جيدا.. لكن.. قد أكذب ذاكرتي.. بسبب شكلك..

الى النور...» ما ____
 عسانا نقول في ححك يا صاحبة
 الجلالة..»
 يقطعهم القاضي واقفا ،
 غاضبا : ____ « الوقت حان ، الوقت
 حان لتصحيح خطاكم ، الوقت حان
 لأسترجاع عزة الماضي.. عزة المتبي
 ، عزة امرئ القيس ، عنترة بن شداد
 ، عمرو بن كلثوم ، شوقي ضيف ، ابن
 الرومي وعددهم كثير وكثير .. كانوا
 يتكلمون ويعتزون ويفتخرون بلغتهم ،
 لغتنا الأم..»
 يتقدم الرجال الأربعة :
 ____ « عذرا سيدي ، عذرا سيدتي ، فعلا
 لقد ضعنا وسط تهايات العجم..»
 ____« ضلوا طريقنا وأخذوا مشعلنا
 وساروا به نحو الأمام ، ورموا بنا وسط
 محيط مضطربة أمواجه..»
 لكن سنعود الى الشاطئ
 بعزيمتنا العربية التي نادى بها رسولنا
 الكريم..»
 ____« نادى بها عمر بن الخطاب ،
 وخالد بن الوليد ، وصلاح الدين الأيو
 الجماعة
 بي..»
 : سنعود ، سنعود ، سنعود...